

## الفتح الاسلامي<sup>(١)</sup>

للأستاذ علي الطنطاوي

«الفتح الاسلامي» أكبر لغز من ألغاز البقرية، وأروع أبحاثية من أبحاث النبوغ، وأجل مظهر من مظاهر العظمة في تاريخ البشر. ولقد مرت عليه إلى اليوم قرون طويلة، وأعصار مدينة، ارتق فيها فن الحرب، وتقدم فيها البشر أشواطاً في كل ميدان من ميادين الحضارة، وغاص المؤرخون في أعماق الجوادث التاريخية، فكشفوا أسرارها وعرفوا أسبابها، فبدت لهم هيئة ضئيلة، بعد أن كانوا يرونها لئلاً لا يحل، ولكنهم لم يستطيعوا أن يكشفوا سر الفتوحات الاسلامية - ولم يدركوا كنهها. وستمر قرون أخرى وأعصار - قبل أن يكشف ذلك السر، وقبل أن يرى تاريخ البشر حادثاً أعجب وأعظم من «الفتح الاسلامي»

إن الجوادث العظيمة في التاريخ على اختلاف مظاهرها وتنوع أشكالها، لا تعدو أن تكون واحدة من ثلاث: إما أن تكون عظمتها فيما أورثت الانسانية من حضارة وعمران، وما رفعت من عيش الناس، وما أفادتهم من رغد ونعمة وترف، وإما أن تكون هذه العظمة فيما خدمت به العقل البشري، وأمدته بأسباب القوة والنضوج، ورفعت من تفكير الناس، وأدنتهم من المثل العليا التي يطمحون إليها، بما فتحت عليهم من أبواب الثقافة وسبل المعرفة، وإما أن تكون عظمة الحادث التاريخي في ذاته، وفيما ينطوي عليه من بطولة نادرة، وقدرة عجيبة، وجلال لا يعرفه التاريخ إلا قليلاً؛ أي أن العظمة إما أن تكون عظمة حضارة وعمران، أو علم وفكر، أو بطولة وحرب.

«والفتح الاسلامي» أعظم الجوادث التاريخية كلها، في أبواب العظمة كلها، لا يدانيه في ذلك حادث في تاريخ الشرق والغرب، القديم منه والحديث

أما في الحروب فإن التاريخ يعرف كثيراً من الفاتحين، منذ عهد الاسكندر ومن قبل الاسكندر، إلى عهد نابليون ومن بعد نابليون، ولكنه لم يعرف فتحاً أوسع ولا أسرع من «الفتح الاسلامي» الذي امتد في اثني عشر عاماً فقط من طرابلس الغرب إلى آخر بلاد العجم، وحاز مصر وسورية وفارس كلها. على أن ميزة الفتح الاسلامي ليست في السرعة وحدها، ولكن ميزته الكبرى أنه فتح أبدي، فلم يعرف عن المسلمين أنهم دخلوا بلاداً وخرجوا منها<sup>(١)</sup>؛ ذلك أنهم لا يفتحون البلاد بسيفهم شأن كل الفاتحين، ولكنهم يفتحون القلوب والعقول، بمدلمهم وعلمهم، فلا تلبث البلاد المفتوحة أن تندمج بالمسلمين، وتصبح أغير على الاسلام من المسلمين الفاتحين، بينما ترى البلاد التي فتحها غيرهم تبقى خاضعة لهم ما بقى السيف مهلكاً فوق رؤوس أهلها، فاذا أحسوا من الفاتحين غرّة، وآذوا منهم ضعفاً وثبوا عليهم فطردوهم، وعادوا إلى ما كانوا عليه، حتى أن أميركا على رغم أنها كانت خالية إلا من قبائل لا شأن لها، وليس فيها دين يناوئ ديناً، أو عادات تصادم عادات، وعلى رغم أن أهلها الذين استعمروها إنكناز كالانجليز الحاكمين، فانهم وثبوا عليهم وحاربوهم حتى نالوا استقلالهم؛ ولا نجد اليوم أميركياً واحداً يريد الانضمام إلى إنكلترا (الأم الكبرى)، بينما نجد كل مسلم في الصين أو الهند أو جاوا أو القسطنطينية كل مسلم صحيح، يتحسر على الوحدة الاسلامية - ويسمى إليها - ولا يقبل بها بديلاً، على رغم ما أخذوا لهم من كذبة القوميات وبدعة الوطنيات، وما أقاموا بين الاخوان من حدود، وما فصلوا به بينهم من حدود، وما سر على هذه التفرقة من سنين وأعوام. ذلك لأن «الفتح الاسلامي» فتح أبدي، مستقر في القلوب، لا تقوى قوة بشرية على انتزاعه، وهذه هي ميزته التي امتاز بها على كل فتح في التاريخ

أما في العلم والثقافة؛ فقد كان «الفتح الاسلامي» أكبر حادث علمي، لأنه حمل إلى البلاد التي فتحها علم السماء والأرض،

(١) الا الأندلس وما يلحق بها، وقد بقيت روح العرب المسلمين في الأندلس. برغم نصرانيتها وإسبانيته، وبرغم ما حاربوها به من وسائل وحشية مهيبة - حتى ظهرت أخيراً على السنة كبار شعرائها، وأطامم ساستها، واتفراً نياً ذلك في (حاضر العالم الاسلامي) الكتاب الذي ينبي أن تخلو منه مكتبة مسلم

(١) فصل من كتاب (عمر بن الخطاب) تأليف الشيخ علي الطنطاوي وأخيه تاجي الطنطاوي، وقد صدر اليوم الجزء الأول منه في (٣٦٨) صفحة من الفطع الكبير، وهو يطلب من (السكبة العربية بدمشق) وسيصدر الجزء الثاني قريباً. والكتاب على غط كتاب (أبو بكر الصديق) وأسلوبه

والأدبية في العالم كله . فضلاً عن أنهما كانتا قاعدتين حرييتين من أكبر القواعد الحربية ؛ وما استقرت أقدامهم في البلاد حتى شرعوا في بناء المدن الكبيرة ، والتصور العظيمة ، وإنشاء أروع آثار البناء ، حتى كانت بغداد وسر من رأى ، وكانت دمشق من قبل ، والقاهرة ومدن الأندلس من بعد ، أعجوبة في فنّ العمران ، وها إن أثرًا صغيراً من آثار العرب — ليس بأعظمها ولا أكبرها — لا يزال إلى اليوم محط ركاب الرحال من أهل العلم ورجال الأدب ، ولا يزال مصدرًا ماليًا للحكومة من كبار حكومات أوربة تبتس إلى اليوم بفضل العرب ، هي حكومة أسبانيا . ولقد حاول الانكليز على قوتهم وغنائمهم — في هذا العصر الذي تسرت فيه أسباب كل شيء — أن ينشئوا مثل « الحمراء » فأنشأوا قصرًا في سيدنهام بعد من أعظم المباني المصرية وأجلها ، ولا يزال دون الأصل بمراحل (١) فكيف عن بني الأصل في ذلك العصر الفارسي ؟

وكيف لوبيقت « الزهراء » التي حيرت رُسُل الافرنج ، أو بقي « التاج » في بغداد ، أو « دار الشجرة » التي أدهشت وفود الروم ؟

\*\*\*

إنه ما من شك لدى المنصفين من المؤرخين ، أنه لولا قيام الحضارة الاسلامية في القرون الوسطى (٢) وازدهارها في الشرق حين كانت أمم الغرب في ظلمات بعضها فوق بعض ، لم تقم الحضارة الحاضرة ، ولم يتمتع البشر اليوم بشمراتها فالفتح الاسلامي إذن أعظم حادث في البطولة والفكر والعمران . وهولمز غامض حير نابليون (ناطقة العصر الحديث في فن الحرب) وحير المؤرخين كلهم . ذلك أن العرب على ما امتازوا به من الكرم والشجاعة والوفاء والبر والاباء ، كانوا في جاهليتهم بؤداء متفرقين ، وجاهلين وتدين ، منقسمين على أنفسهم ، مختلفين فيما بينهم ، لا يعرفون إلا جماعة القبيلة ، ووحدة المشيرة ، فاذا تخفروا فيها يفخرون ، وإن دافعوا عنها

(١) حضارة العرب لأسعد دافر ٢٥٦

(٢) اللذنب الصحيح في القرون الوسطى هو ماذهب اليه المؤرخ الألماني (شبتكر) وغيره من أن هذا التقسيم إلى قرون لدية ووسطى وحديثة — إن صح وقيل — فلا يطلق على غير أوربة ، ولا علاقة له بالفرق ، لأن لكل حضارة مميزات خاصة ، ومن الخطأ الجسم سبب صفات القرون الوسطى على الفرق المسلم الذي كان إلى ذلك العهد في ذروة الرقي

فخر عقولها بالتوحيد ، وأعتتها من عبودية الأحجار والأشجار ، واليزان والأخشاب ، والقسس والأشراف . ثم وضع في أيديها القرآن الذي يأمر بالتعكر في خلق السموات والأرض ، ويحفز إلى البحث والنظر والاستدلال ، والسنة التي ترغب في العلم وتدعو إليه ، وتجعل طلبه فريضة على كل مسلم ؛ وكان الفاعمون أنفسهم علماء ، فما هي إلا أن فرغوا من الحروب حتى وضعوا السيف وحملوا القلم ، وألقوا الدروع وأخذوا الكتب ، وجلسوا في المساجد (والمساجد برلمات المسلمين وجامعاتهم العلمية) يُدرسون ويُقرنون ويبحثون ، فكان من تلاميذهم المفكرون والمحدثون ، والفقهاء والأصوليون ، والأدباء والنحويون ، والقصاص والمؤرخون ، والفلاسفة والباحثون ، والأطباء والفلكيون ، وأولئك الذين تصدروا بمد لتدريس في جامعات الشرق ، وجامعات الأندلس ، جلس بين أيديهم الباباوات ، والملوك ملوك أوربا ، وكانوا أساتذة العالم الحديث

فكان من ثمرة الفتح أن هذه البلاد الأعجمية — التي كانت تئن في ظلام الجهل والقلم — لم تلبث أن ظهر منها علماء فحول ، كان لهم الفضل على العقل البشري ، ولا يزال أبحاؤها خالدة ، تضيء في جبين الدهر

ومن لمعرى ينسب البخاري والطبري والأسباني والمهذابي والشيرازي والسرخسي والمروزي والرازي والخوارزمي والنيسابوري والقزويني والدقنوبوري والسيرافي والجرجاني والنسائي وغيرهم وغيرهم ممن لا يحصهم عدد ؟ ألا يشمر كل مسلم بأن هؤلاء وأمثالهم هم علماء الأمة وأعلامها ؟ ألا نحل كتاب البخاري أسمي محل من نفوسنا ، ونتخذة حجة بيننا وبين الله ؟ ألا يؤلف هؤلاء العلماء صلة من أوثق الصلات بيننا وبين فارس لا يستطيع أن يفهم عراها مائة حكومة من مثل الحكومة الحاضرة ، التي تمتن في فارس سنة (هذا الآخر ...) في تركيا هذا هو فضل الفتح علينا وعلى الأجيال الآتية — أما فضله على العقل البشري — فحسبك أن تعلم أنه لولا الفتح الاسلامي ، ولولا علماء المسلمين وفلاسفتهم لم يكن عقل القرن العشرين

أما في الحضارة والعمران ؛ فلفتح الاسلامي أكبر الأثر في نشر الحضارة وتوطيد العمران ، والممران طبيعة في البري السلم ، فلم يعض على فتح المسلمين بلاد المراق إلا ستوات حتى أسسوا مدنتين كبيرتين كان لها الفضل والنسبة على الحركة العلمية

هذا وإن من الخطأ أن نعدّ الفتح الاسلامي ، مثل ما نعرف من فتوح الأمم المختلفة في الأعصار التباينة ، لأن للفتح الاسلامي طبيعة خاصة به يجعله ممتازاً عن سائر الفتح ، وتنشأ له في التاريخ باباً خاصاً ، ذلك أن كافة الفتح إنما كانت الناية منها ضمّ البلاد المفتوحة إلى أملاك الفاتحين ، والانتفاع بخيراتها ومواردها ، لا نعرف فتحاً يخرج عن هذا المبدأ إلا الفتح الاسلامي ، فلم تكن القابضة منه ضمّ البلدان الى الوطن الاسلامي . وامتصاص دماء أهلها وأموالهم ، واستغلال مواردها الطبيعية وخيراتها ، ولكن غاية نشر الدين الاسلامي ، والدمى لاعلاء كلمة الله ، وإذاعة هدى القرآن في الأرض كلها ؛ فكانوا كلوا وطئوا أرضاً عرضوا على حكومتها وشعبها الاسلام ، فإن قبلوا به واتبعوه ونطقوا بكلمة الشهادة انصرفوا عنهم وعدوم إخوانهم لهم ملهم وعليهم ما عليهم ، لا فرق بين أمير المؤمنين وآخر مسلم في أقصى الأرض ؛ كلهم سواء في الحقوق والواجبات <sup>(١)</sup> ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . وإن لم يقبلوا بالاسلام عرضوا عليهم الجزية ، وهي أقل بكثير مما كانوا يدفعونه الى ملوكهم وأسيادهم ، وسحوم ذمّة المسلمين ، وأعطوهم الحرية في أمور دينهم وديانهم ، وتمهدوا لهم بالأمن الداخلي والخارجي . وإن أبوا أن يطولوا الجزية حاربهم . ثم لم يكرهوا أحداً على الاسلام ، لأن في صحة الاسلام وفوائده في الدنيا والآخرة ما يضي في الدعوة اليه عن السيف . وما (دين محمد دين السيف) كما يهتف العامة والجاهلون ، ولكنه دين العقل والمنطق والعلم ، ، والمسلمون عامة دعاة مرشدون ، ولكنهم دعاة أقوياء ، يحملون القرآن بيد ، والسيف بالأخرى ، فن قبل فإ كانوا ليحاربوه ، ومن أبى وحاربهم أدبوه حتى يرجع الى الحق ، ويمنح الى السلم

ثم إن معاملة المسلمين للنعمين ، ووفائهم بهمودم ، وصدق وعودم وكرهم وتساعهم الذي شهد به الأصدقاء والأعداء ؛ وصار أشهر من أن يذكر ما يؤكد طبيعة « الفتح الاسلامي » ويرفعه عن أن يقاس به فتح آخر!

وهذه هي التواريخ فاستقروها واحكموا!

(بفردار) على الطنظارى

(١) في كتاب (عمر بن الخطاب) هذا فصل عن طبيعة الحكومة الاسلامية وحقبة الخلافة فليراجع

يدافعون . . . إذا وجد العرب من القبيلة قافلة من غير قبيلته ، كان في حل من انتهاب مالها ، وقتل رجالها ، لا حكومة تنظم أمورهم ، ولا دين يردعهم ، إلا ديناً مضحكاً سخيفاً ، دين من يتخذ رباً من الحجر ، فإذا جاع أسكاه ، كما (أكلت حنيفة ربهاً . . .) ، أو من ينحت من الصخر صنماً ، ثم يكف عليه عابداً داعياً ، أو من يعبد الشجر والحجر . وكانوا يخشون كسرى ، ويهربون قيصر ؛ وكان ملوكهم في الحيرة والشام تبعاً للفرس والروم وجنداً لها ، يضربون بعضهم ببعض ، ليذهبواهم بالنغم ويعود العرب بالنرم ؛ وكان اتحاد قبيلتين اثنتين ككبر وتغاب في طاعة كليب ، أو قيس والسكون في جيش قيس بن معدى كرب حادثاً عيبياً يكسب صاحبه نقر الأبد ، وأصراً نادراً يلبث حديث الناس أياماً وليالي . . . فكيف يتحد العرب كلهم ، عدنانتهم وقطانتهم ، ويسيروا في صف واحد ، يقدسهم رجل واحد ، حتى يواجهوا جيوش كسرى وقيصر التي يهابونها ويهربونها ، ثم يضربونها الضربة القاصمة للظهر ، فإذا انجلى غبار المعركة نظرت فإذا المعجزة قد ظهرت على أتمها ، وإذا الأرض قد بدلت غير الأرض ، وإذا فارس الوثنية ، وسورية النصرانية ، ومصر الرومانية ، قد عجت كلها محوآ ، وقامت مكانها أم إسلامية في فارس وسورية ومصر ، كأنما هي لاختصاصها للعربية والاسلام لم تكن يوماً من الأيام على غير الاسلام ؟

أ كان هذا الانقلاب ما بين ليلة وضحاها . . . أ كان هذا التبدل الذي تغفل في صميم الأمة العربية فغير كل شيء فيها وأنشأها إنشاءً جديداً لأن رجلاً قام في مكة ، يتلو كتاباً جاء به ؟ أ يقوى رجل مهما كان شأنه على مثل هذا العمل ويكون له في تاريخ العالم ومستقبل البشرية هذا التأثير ؟

هذا هو اللغز الذي حير المؤرخين من الغربيين ، ولم يعرفوا له حلاً منقولاً !

على حين أن الأمر واضح والسبب ظاهر ، ذلك أن هذا الأمر لم يكن عمل رجل عظيم من عظماء الناس ، ولكنه عمل الله جلّت قدرته ، أظهره على يد سيد أنبيائه ، وخاتم رسله ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

ذلك أن « الفتح الاسلامي » معجزة من معجزاته صلى الله

عليه وسلم